نساء في الإسلام

* * *

فاطِمَةُ الزَّهْراء

رَضِيَ اللّهُ عَنها

نجلاء شوقي حسن

فاطمة الزهراء

خرَجتْ شَيماءُ ووالِدَتُها من مسجدِ السَّيِّدةِ زَينب مَسرورَتَيْن ، بعد أن أدَّتا صَلاةَ العِشاءِ جَماعَة ، فتلكَ هي المَرَّةُ الأولَى الَّتى تَصحبُها فيها والِدَتُها للصَّلاةِ في المَسجِد .

سألتْ شيماءُ والِدَتَها : أَعلمُ يا أُمّي أنَّ السَّيِّدةَ زَينَب ـ رضِيَ اللّهُ عَنها ـ هي من بَيتِ رَسولِ اللّه ـ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّم ـ وهذا كلُّ ما أعرِفُه عنها . فبنتُ من هِي يا أُمّي ؟

قالتْ والدَتُها : هي بنتُ سيِّدِنا علىٍّ بنِ أبى طالِب ـ رَضِيَ اللّهُ عنه ـ من زَوجَتِه السَّيِّدَةِ فاطِمَةَ الزَّهراء ، بنتِ رَسولِ اللّه ـ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّم ـ وهذا يَعني أنَّ

السَّيِّدةَ زَيْنَب ، هي حَفيدَةُ رَسولِ اللّه ، ورَسولُ اللّهِ جَدُّها .

قالتْ شيماء : هلاّ حَكيتِ لي يا أُمّي قِصَّةَ حياةِ أُمّها السَّيِّدةِ فاطِمَةَ الزَّهراء ، كيفَ عاشتْ ومن تزوَّجت ؟

قالتْ والِدَتُها : السَّيِّدةُ فاطِمَةُ الزَّهراء ـ رَضِيَ اللّهُ عَنها ـ هي سيِّدةُ نِساءِ العالَمين ، وأُمُّها هي أمُّ المُؤمِنينَ السَّيِّدةُ خَديجةُ بنتُ خُوَيلِد ـ رَضِيَ اللّه عَنها ـ زوجةُ رَسولِ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ وسيِّدةُ نِساءِ أهلِ زَمانِها . وُلدتْ السيدة فاطمة قبلَ البعثةِ المُحمَّديَّةِ بخَمسِ سَنَوات . ويُذكِّرُنا يَومُ مَولدِها بحادِثَةٍ جَرتْ في مَكّة ، كادتْ تُشعلُ الحربَ بينَ أهلِها بعضِهم وبَعض . وتَتعلّقُ هذه الحادِثةُ بعَمليَّةِ تَجديدِ بناءِ الكَعبة ، إذ طَغَى سيلٌ جارِفٌ على الكَعبةِ فصدَّعَ جُدرانَها ، وهدَّدها بالسُّقوط ، فقامتْ قُريشٌ بهَدمِها وإعادَةِ بنائِها من جَديد .

فلمّا تمّ بِناؤها وأرادوا وضعَ الحَجرِ الأسْود ، اخْتَلفَ أشْرافُهم فيمَن يَقومُ بوَضعِهِ في مَوضِعِه ، وتَنافَسوا في ذلك واشتَدَّ خِلافُهم ، حتّى كادتْ تشُبُّ نارُ الحَربِ بينَهم ، فجرَّدوا السُّيوف ، ووقَفتْ كلُّ قَبيلَةٍ تَتحدَّى الأُخرى .

فقامَ أُميَّةُ بن المُغيرَة ، وكانَ أكبرَ النّاسِ سِنّا ، وخطبَ فيهم : لا تَختَلِفوا يا قَوم ، واجْعلوا حَكمًا يَقضي بينكم فيما تَختَلِفونَ فيه .

فقالوا : نكِلُ أمرَنا لأوّلِ داخلٍ من بابِ الكَعبَة .

وفيما هم يَنتَظِرون ، إذ دخلَ من بابِ الكَعبَةِ مُحمَّد ــ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ــ وكانَ في الخامِسةِ والثّلاثينَ من عُمرِه ، فاطْمأنّوا جَميعا إليهِ لِما يَعهَدونَ فيهِ من الأَمانَةِ والصّدقِ ورَجاحَةِ العَقل . وقالوا : هذا مُحمَّدٌ الأَمين . رَضيناهُ حَكمًا يَقضي بينَنا .

وأخبَروه بِما اخْتَلفوا فيه ، وطَلبوا منه أن يَحكُمَ بَينَهم .

ففكَّرَ مُحمَّدٌ بُرهَة ، ثم بَسَطَ رِداءَه على الأَرض ، ورفعَ الحجرَ الأسودَ ووضَعهُ فوقَ الرِّداء ، ثمَّ دَعا رُؤساءَ العَشائرِ أنْ يَأخُذَ كلٌّ مِنهم بطَرفٍ من أطرافِ الرِّداءِ الأربعَة ، ورَفعوهُ حتّى وَصلوا إلى المَكانِ الّذى سيوضَعُ فيهِ الحَجرُ الأسوَد ، فرَفعه مُحمَّدٌ بِيَديه ، ووَضعَه فى مَكانه .

وبهذا التّصرُّفِ الحَكيم ، انتهت المُشكِلةُ الّتى كادتْ تُؤدّى إلى إراقَةِ الدِّماء ، وانتشرَ الخبرُ فى أنحاءِ مَكّةَ بعَودَةِ السَّلامِ بينَ أهْلِها ، وسُرَّ النّاسُ بحِكمَةِ مُحمَّدٍ الأمين .

ولَمّا عادَ مُحمَّدٌ إلى بَيتِه ، تلقّى خبرَ مَولِدِ ابْنَتِه فاطِمَة ، وكانتِ ابنته الرّابعَةَ وآخرَ أولادِهِ من السَّيِّدةِ خَديجَةَ بنتِ خُويلِد . وقد لُقّبتْ بالزَّهراءِ لبَياضِ وَجهِها ، وما يتَلألأُ فيهِ من أنْوار . وكانتْ فاطِمةُ الزَّهراء ، كما تَصِفُها أمُّها أمُّ المُؤمِنينَ السَّيِّدةُ عائِشَة ، بقَولِها : ما رأيتُ أحدًا من خَلقِ

اللّه ، أشبَهَ بحديثِهِ وكلامِهِ برَسولِ اللّهِ ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ من ابْنتِهِ فاطِمةُ الزَّهراء .

وكانَ رَسولُ اللّهِ ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ يقولُ عن فاطِمَةَ : (من أرضَى فاطِمةَ فقد أَرضَى اللّه ، ومنْ أغضَبَها فقد أغضَبَ اللّه . وإنّ فاطِمةَ بِضعَةٌ مِنّي ، يَسرُّني ما سرَّها ، ويُغضِبُني ما أغضَبَها) .

وهكذا تَمتّعت فاطِمةُ الزَّهراءُ بحُبِّ أبَوَيْها وأَخَواتِها ، وكانَ رسولُ اللّهِ ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ يَشمَلُها برِعايَتِه وحَنانِه ، حتّى تشبّعتْ منذُ نُعومَةِ أظْفارِها بأخْلاقِ النُّبوَّة ، ونورِ الحِكمَة ، ومَكارِمِ الأخْلاق .

وقد أُصيبَت فاطِمةُ الزَّهراء ، في صِغَرِ سِنّها بِما أصابَ المُسلِمينَ في أثناءِ حِصارِ قُرَيشٍ لهم في شِعبِ أبي طالِب ، من جوعٍ وألم ، كما شَهِدت الصّراعَ القائمَ بينَ الحقّ والباطِلِ ، بينَ أبيها رَسولِ اللّهِ ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ

وبينَ كُفَّارِ قُرَيش ، فرأتْ تَكذيبَهم لـه ، وقَسوتَهم عَليـه ، مِمّا جعلَها تَبكى وتتألَّم . وزادَ من بُكائِها وأَلَمِها وفاةُ أمِّها السَّيِّدةِ خَديجَة ـ رضِىَ اللّه عنها ـ فوجدتْ نَفسَها بعدَ زَواجِ أخَواتِها زَينبَ ورُقَيَّةَ وأُمَّ كُلثوم ثمّ مَوتِ أُمِّها ، أمامَ مَسئولِيّاتٍ كَبيرَةٍ مَطلوبَةٍ مِنها نَحوَ أبيها الرَّسول الكريـم ، وهو يَمرُّ بِظُروفٍ عَصيبَة ، لفَقْـدِهِ أمَّ أولادِهِ وشَريكَةَ حَياتِه ، ومُعاناتِه مّما يُلاقيهِ على أيدى كُفّارِ قُرَيش .

راحتْ فاطِمةُ الزَّهراء ، وهىَ أصغَرُ أخَواتِها ، تَقومُ على خِدمَةِ أَبيها ورِعايَتِهِ والتَّخفيفِ عنه ، ورَسولُ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلَّم ، يُغدِقُ عليها من حُبِّهِ وحَنانِه .

إلى أن هاجَرَ المُسلِمونَ من مكَّـةَ إلى المَدينَة ، واستَقَرّوا فيها بعدَ هِجرَةِ النَّبىِّ وصاحِبِهِ أبى بَكرٍ الصِّديقِ إلى المَدينَة . وتَزوَّج الرَّسول ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلَّم ـ السَّيِّدةَ عائِشَةَ بنتَ أبى بَكرٍ الصِّديق ـ رَضِىَ اللّه عَنها ـ فتقَدَّمَ كِبارُ

الصَّحابَةِ يَخطبونَ إليه السَّيِّدَةَ فاطمةَ الزَّهراء ، بعدَ أن كانوا يُحجِمونَ عن طَلَبِ يَدِها ، حيثُ كانت تَقومُ على خِدمَةِ أبيها ورِعايَتِه ، فاختارَ لها أبوها ابنَ عَمِّهِ الإمامَ عليَّ بنَ أبى طالب . فلمّا ذهبَ رسولُ اللّهِ إلى فاطِمةَ الزَّهراءِ لِيُخبِرَها ويَعرِفَ رَأيَها فى عَلِيّ ــ رضِيَ اللّه عنه ــ صَمتَت فى خَجَلٍ وحَياء ، وكانَ فى صَمتِها علامَةُ القَبولِ والرِّضا . فخرجَ رسولُ اللّه ــ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّم ــ إلى ابنِ عمِّهِ عليِّ بنِ أبى طالب ، فبشَّرَه بقَبولِها زَواجَه . كما أعلَنَ عَلى أصْحابِهِ خِطبةَ ابنَتِهِ الزَّهراء .

وكانَ الإمامُ عليّ ــ كرَّمَ اللّه وجهَه ــ فقيرًا لا يَمتَلِكُ شَيئا ، فطلبَ منهُ رَسولُ اللّهِ أن يَبيعَ دِرعَه ، لِيُجهِّزَ العَروسَ بثَمنِها . فلمّا تَزوَّجتْ فاطِمةُ الزَّهراءُ عليَّ بنَ أبى طالِبٍ الفَقيرَ الّذى لا يَمتلكُ شَيْئا ، عاشَتْ معهُ عِيشَةً

قاسِيَةً خشِنَة ، ليسَ فيها أىُّ نوعٍ من مُتَعِ الحَياة ، فشَعرتْ في مَنزِلِ الزَّوجيَّةِ بالحِرمان .

وذاتَ صَباحٍ ذَهبتْ إلى أَبيها رَسولِ اللّـه ــ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ــ وقالَت له :

ــ أَهانَتْ عليكَ ابنتُك يا أبَتاه ، حتّى تُزوِّجَها مـن رَجُلٍ فَقير ؟

فنظرَ إليها النّبىُّ فـى عَطفٍ وقـالَ لها : يـا فاطِمـةُ لقـد زَوَّجتُكِ من أعظمِ الرِّجالِ وأَفضلِهِم وأكرَمِهِـم مَقامًـا عِنـدَ اللّه .

وراحَ صَلواتُ اللّهِ وسَلامُه عليـه ، يُعـدِّدُ لابْنَتِـهِ فاطِمَـةَ الزَّهراء ، فضائِلَ عَلِىّ ــ كرَّمَ اللّه وجهَـه ــ ودَورَه البـارِزَ في نُصرَةِ الإسْلام .

ثمَّ قالَ لها : فأىُّ امرأةٍ في قُريشٍ لَها زَوجٌ عالِمٌ شُـجاعٌ فارِس ، كزَوجِكِ عَلىّ ؟

فاسْتراحتْ فاطِمـةُ الزَّهـراءُ لكَـلامِ أَبيهـا ، ورَجعـتْ إلى دارِها ووَجهُها يَفيضُ بِشرًا وأمَلا وابْتِهاجا .

وبعدَ عـامٍ مـن زَواجِهـا أَنجبـتْ فاطِمـةُ الزَّهـراءُ الحَفيـدَ الأَوَّلَ لرَسولِ اللّه ـ صلّى اللّـهُ عليـهِ وسـلّم ـ ففَـرِحَ بـهِ فرحًا كَبيرًا ، وسمّاه الحَسَن .

ثمَّ أَنجبتْ بعدَه الحَفيدَ الثّاني له فسَمّاه الحُسَين .

ثم أَنجَبتْ بَعدَهما زَهرةَ بنى هاشِـم ، الزَّهـرةَ الّتـى تَنعـمُ بطيبِ شَذاها من بَيتٍ كُلُّه رَياحينُ وزُهـورٌ عطّـرتِ الدُّنيـا جَميعا . إنّهـا السَّـيِّدةُ زَينَـب ، بنـتُ الإمـامِ عَلـىِّ بـنِ أبـى طالِب ، وقد وُلِدت ـ رَضِىَ اللّه عَنها ـ فى السَّنةِ الخامِسَةِ لِلهجرَةِ النّبوِيَّة المُشرَّفَة ، بعدَ مولِدِ أَخيها الحُسَيْن بعامَيْن .

ثمَّ رُزِقَت السَّيِّدةُ فاطِمةُ الزَّهراءُ بزَهرةٍ رابِعَـة ، أَسـمَتْها أُمَّ كُلثوم .

وفى يومٍ كانَ رَسولُ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ عِندَ زَوجتِهِ أُمِّ سَلَمة ـ رَضِىَ اللّه عَنها ـ فدَعا عَليًّا وفاطِمَةَ والحَسَنَ والحُسَينِ وقال : اللّهمَّ هَؤلاءِ أهلُ بَيتى وخاصّتى ، اللّهمَّ أذهِبْ عَنهم الرِّجس وطَهِّرهُم تَطهيرا .

وقد تَمتّعت فاطِمةُ الزَّهراءُ بحُبِّ أبيها ، وعبَّر رَسولُ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ عن حُبِّهِ العَظيمِ لابْنَتِهِ فاطِمَةَ حينَ قال :

ـ خيرُ نِساءِ العالَمينَ أرْبَع : مَريَم ، وآسِيَة ، وخَديجَة ، وفاطِمَة .

وقد مرّتِ السَّيِّدةُ فاطِمة ـ رَضِىَ اللّه عَنها ـ بأحْداثٍ كَثيرَة ـ ذُكِرتْ فى السِّيرَةِ النَبوِيَّة ـ بينَ أفْراحٍ وأحْزان ، منذُ وَفاةِ أمِّها خَديجَة ـ رَضِىَ اللّه عَنها ـ ثُمَّ وفاةِ أُختِها السَّيِّدةِ رُقَيَّةَ زَوجَةِ عُثمانَ بنِ عفّان ، ثُمَّ وَفاةِ أُختِها زَينَبِ الكُبرَى ـ رَضِىَ اللّهُ عَنها فى السَّنةِ الثامِنَةِ لِلهِجْرة ، ثُمَّ

وَفاةِ أُخْتِها أُمِّ كُلْثوم ـ رَضِيَ اللّه عَنها ـ بعدَ عامٍ من وَفاةِ زَيْنب ، فكانَت دائِمًا صابِرَةً مُحتَسِبة .

وعندما سَمِعتْ فاطِمةُ الزَّهراءُ بمَرضِ أبيها ـ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم ـ هُرِعتْ إليه . فلمّا دَخلتْ عَليهِ وَجدتْهُ على فِراشِه ، فأخذَ بيَدِها وأجْلَسَها بجانِبه ، ثمَّ قال لَها حديثًا فبكتْ ، ثمَّ قالَ لها حَديثًا آخرَ فضَحِكت . وظَلّت فاطِمةُ إلى جِوارِ أبيها حتّى انْتَقلَ الرّسولُ الكَريمُ إلَى الرَّفيقِ الأعلَى ، فبَكتْهُ في لَوعَةٍ وأَسى بكاءً مُرّا ، وبكَى عليه عَلِيّ ـ رَضِيَ اللّه عنه ، كما بكَى المُسلِمونَ جَميعًا رَسولَ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم .

وبعدَ وَفاةِ النّبيِّ ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ـ سألتْ السَّيِّدةُ عائِشةُ أُمُّ المُؤمِنين ـ رَضِيَ اللّه عنها ـ فاطِمةَ عمّا جَعلَها تَبكي ثُمَّ تَضحك ـ وقتَ أنْ كانتْ جالِسَةً بجِوارِ أبيها ، فقالَتْ لها :

ـ قالَ لى أبى : إنَّ جبريلَ كانَ يُدارِسُنى القُرآنَ فى كلِّ سَنةٍ مرَّة ، وأنّه دارَسنى هذا العامَ مرَّتَيْن . وما أراهُ إلاّ قد حضَرَ أجلى .

قالتْ : فبَكيتُ أبى . ثمَّ قال لى : وإنّكِ أوَّلُ أهْلى لُحوقًا بى ، ونِعمَ السَّلفُ أنا لكِ ففَرِحْت .

واخْتفت الابْتِسامَةُ من وَجهِ السَّيِّدَةِ فاطِمةَ الزَّهراء ، ولكن بَقِىَ الإيمانُ والتّقوَى ، ووَضاءةُ العِبادَةِ تَملأُ وَجهَها الطَّهورَ نورا وجَلالا ومَهابَة .

* * *

وجَلستِ الزَّهراءُ فى بَيتِها تُصلّى وتَقرأُ القُرآنَ وتَتعَبَّد ، وكانَ الإمامُ علىّ ـ كرَّمَ اللّه وجهَه ـ يُواسيها بكَلِماتِه الرَّقيقَة ، كما كانَ الحَسنُ والحُسينُ يُضيفانِ على البَيتِ عَبيرًا من رائحَةِ جدِّهما العَظيم ، ويُدخلانِ الأُنسَ على قَلبِ الأُمِّ الحَزينَة ، الّتى واجَهتِ المَشاكلَ الكَثيرَة بعدَ

مَوتِ النَّبيِّ ـ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم ـ . ومرَّتِ الأيَامُ بَطيئَةً بالزَّهراء ، ثمَّ أَحسَّتْ بالمَرضِ يُداهِمُها ويَستَلُّ مِنها بَصيصَ العافِيَةِ الخافِت . وكانَ جَسدُها النَّحيلُ لا يَحتمِلُ المَرضَ فصَبرتْ على آلامِ العِلَّة ، ثمَّ أفضتْ لزَوجِها الإمامِ عَليٍّ بأنَّها في طَريقِها إلى الدَّارِ الآخِرَة ، فبكَى طَويلاً حتَّى كادَتْ عَيناهُ تَبيَضَّانِ من الحُزْن . وعلِمَ الحَسنُ والحُسَينُ كَذلِك بأنَّ أُمَّهُما ستُفارِقُ الحَياة . فاغْرورَقَت أعْيُنُهما بالدُّموع . ودارَ همسٌ في المَدينَةِ بأن آخِرَ أولادِ الرَّسولِ ـ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم ـ ستَلحقُ بهِ قَريبا .

وفي لَيلَةٍ من لَيالي شَهرِ رَمَضان ، اغْتَسلتْ وصلَّت رَكعَتَين ، وفاضَت روحُها الطَّاهِرةُ في السَّجدةِ الأَخيرَةِ ، بعدَ وفاةِ أبيها ـ عَليه الصَّلاةُ والسَّلام ـ بنَحوِ سِتَّةِ أشْهُر . ويا لَها من لَحَظاتٍ نورانِيَّة فاحَت خِلالَها رَوائحُ أَزكى منَ المِسْك ، حينَ حَملتْ مَلائِكةُ الرَّحمةِ روحَ الزَّهراء ،

وصَعدتْ بِها إلى السَّماء . وما هى إلا ساعَةٌ حتّى كان الإمامُ عَلِيّ ـ كرَّم اللّه وجهَه ـ قد قامَ بدَفنِها ، ورجعَ يَستقبِلُ العَزاءَ فيها .

وجدَّد مَوتُ الزَّهراءِ حزنَ المُسلمينَ على أبيها ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّمَ ـ ولبِثتِ المَدينَةُ حَزينةً حُزنًا شَديدًا على الزَّهراء ، فَترةً منَ الزَّمَن .